إشكـالية التفسيـر
والتأويـــل في القران الكريم

أ د ، نصر الجويلي
جامعة الزيتونة – تونس

لقد ترددت على السنة المفسرين والدارسين لعلوم القران كلمتان هما : التفسير والتأويل : وكلا هاتين العبارتين لهما الدور الكبير في شرح النص القرآني ، وفهم دلالاته وتوضيح عباراته ،والوقوف على معانيه الخفية وألفاظه المتشابهة وان كان بين اللفظين اختلاف من حيث الدلالة والمفهوم ولا بد أن نشير هنا إلى أن إشكالية العلاقة بين التفسير والتأويل بدأت دينية حيث ارتبطت بالثقافة الإسلامية ولغوية استندت إلى المعاني اللغوية لكلمتي التفسير والتأويل والعلاقة بين المصطلحين هي التي ستتشكل من خلالها المواقف المتباينة من إمكان التأويل أو رفضه وهو ما يعطي للإشكالية أهميتها في هذا المجال لان التأويل كان وما يزال حاجة ملحّة في هذا الفكر إلى حدّ لا يمكن الفصل بين وجود الإنسان وتأويله نظرا الارتباط هذا لوجود بمعضلة الفهم والبحث عن المعنى لان الفكر الإنساني اليوم يعيش زمنا قد وعى فيه بضرورة التأويل ، وان ما نراه من صراعات فكرية هي في الواقع صراعات لتأويل خاصة لفهم النصوص على اختلاف أنواعها ودلالاتها وهذا يتوقف على مدى المعرفة بقوانين اللغة وضوابط كل من التفسير والتأويل حتى لا يصبح كل منهما عبارة عن النص والتعسف عليه وإخراجه من معناه الأصلي .

معنى التفسير لغة واصطلاحا :

(1) لغة : يذكر ابن منظور التفسير من الفسر ، البيان ، فسّر الشيء يفسّره . والفسر : كشف المغطّى والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل ، وأستفسرته كذا أي سألته أن يفسّره لي " (1)

(1) ابن منظور – لسان العرب ، دار صادر بيروت 1990 ، ج 5 ص 55

- ويذكر الجرجاني أنّ التفسير في اللغة يرجع الى معاني الإظهار والكشف ، واصله في اللغة من التفسير . وهي القليل من الماء الذي ينظر فيه الأطباء . فكما أنّ الطبيب بالنظر فيه يكشف عن علّة المريض . فكذلك المفسّر يكشف عن نشأة الآية ومعناها والسبب الذي أنزلت فيه " (2)
- ويذكر الاصبهاني أنّ الفسر هو إظهار المعنى المعقول . والتفسير قد يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها (2)

2) **التفسير اصطلاحا .**

عرّف التفسير بعدة تعريفات متقاربة منها تعريف أبو حيان في البحر المحيط من انه " علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القران ومدلولاتها ، وأحكامها الافرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتتمّات لذلك " (3)

أما الزركشي فيعرفه بقوله : " التفسير علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم . وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه وحكمه واستمداد ذلك من علم العربية ، والنحو والتصريف ، وعلم البيان ، وأصول الفقه والقراءات ، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ " (4)

أما الجرجاني في كتابه التعريفات فقد وضح مفهوم التفسير توضيحا جليّا فيقول : " التفسير في الأصل الكشف والإظهار وفي الشرع توضيح معنى الآية ، وشانها ، وقصتها ، والسبب الذي نزلت به بلفظ يدلّ عليه دلالة واضحة ظاهرة " (5) .

---

(2) الاصبهاني : المفردات في غريب القران ، دار قهرمان ، اسطامبول 1986.ص571.

(3) ابو حيان : البحر المحيط . ج 1 ص 13

(4) البرهان في علوم القران . ج1 .ص 104

(5) الجرجاني : التعريفات عالم الكتب : بيروت 1987 .ص91

مفهوم التأويل

(1) **لغة :** أن استعمال كلمة التأويل في المعاجم اللغوية يدور على معنيين

المعنى الأول : بمعنى المرجع والمآل والمصير ، والحقيقة التي يؤول إليها الأمر يقول ابن فارس " أول الحكم إلى أهله أي أرجعه ورده إليهم ، ومنه أيضا آل جسم الرجل إذا نحف . أي رجع إلى تلك الحال . ومن هذا الباب قوله تعالى " هل ينظرون إلا تأويله " (الأعراف .52) .

وجاء في الصحاح : التأويل : تفسير ما يؤول إلى الشيء ، وقد أولته وتأولته تأولا ومنه قول الأعشى

على أنها كانت تؤل حبها : تأول ربعي السقاب فأصبحا (6)

قال أبو عبيده : يعني تأول حبها ، أي تفسيره ومرجعه

وقال الراغب في المفردات " أول ، التأويل من الأول أي الرجوع إلى الأصل ومنه الموئل للموضع الذي يرجع إليه . وذلك هو رد الشيء إلى الغاية المرادة فيه علما كان أو فعلا (7)

المعنى الثاني :

التأويل : معناه التفسير والبيان ، أي تفسير وبيان ما يؤول إليه الشيء ، وقد أولته وتأولته تأولا . أي فسّرته وبينته .

فالتأويل حينئذ تفسير الكلام الذي تختلف معانيه .

(6) الجوهري : الصحاح ، ج 1 ص 1627 .

(7) الاصبهاني ، المفردات في غريب القران .

ويعرّف ابن الجوزي التأويل بقوله " التأويل نقل الكلام عن موضعه إلى ما يحتاج في إثباته إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ " (8)

ونجد ابن منظور في القرن السابع الهجري ينقل عن ابن الأثير معنى التأويل بأنه نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ ، وهو نفس المعنى الذي ذكره الزبيدي في تاج العروس " التأويل صرف الآية عن معناها إلى معنى تحتمله ، إذا كان المعنى المحتمل الذي تصرف إليه الآية موافقا للكتاب والسنة "

إطلاقات التأويل : من خلال جملة التعريفات المتقدمة للتأويل أصبح يطلق على

(1) التأويل : صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به .

التأويل بمعنى التفسير ، وهو الغالب على المفسرين القدامى للقران كالطبري وأمثاله ، كقوله : القول في تأويل قوله تعالى : كذا وكذا أي تفسيره وبيانه

التأويل : الحقيقة التي يؤول إليها الكلام

ورود كلمة التأويل في القران الكريم :

ورد هذا اللفظ في عديد الآيات القرآنية ، مكيها ومدنيها وسوف نقف عند البعض منها .

أولاها : قوله تعالى : " وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله " (آل عمران أية 7)

قال ابن قتيبة : تأويله ، هو الحقيقة التي اخبر عنها ، وذلك أن الكلام نوعان : إنشاء فيه أمر، وأخبار ، فتأويل الأمر هو نفس الفعل المأمورية . وأما الأخبار فتأويله عين الآمر المخبر به إذا وقع (9)

ثانيهما : قوله تعالى : فإذا تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الأخر ذلك خير وأحسن تأويلا " (النساء : أ 59) فسر التأويل ههنا مجاهد وقتادة بالثواب والجزاء والسدي وابن زيد وابن قتيبة والزجاج بالعاقبة ، وكلاهما بمعنى المآل ،

(8) الزبيدي / تاج العروس : ج 7 ص 215

(9) ابن تيمية : الفتاوي . ج 3.ص55

لكن الثاني اعم فهو يشمل حسن المآل في الدنيا . وقد يكون التنازع في الأمور الدنوية أكثر والرجوع فيه إلى كتاب الله ورسوله في حياته وسنته من بعده يكون مآل الوفاق والسلامة من البغضاء ولا يحتمل بحال أن يكون معنى التأويل هنا التفسير أو صرف الكلام عن ظاهره إلى غيره ، لان الكلام في التنازع وحسن عاقبة رده إلى الله ورسوله .

والثالثة : (سورة الأعراف 7) وفيها قوله تعالى : (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوله يؤمنون * هل ينظرون إلا تأويله ؟ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاء رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون) (الأعراف 52-53) فسر ابن عباس (تأويله) هنا بتصديق وعده ووعيده أي يوم يظهر صدق ما اخبر به من أمر الآخرة وقال قتادة تأويله ثوابه ومجاهد جزاؤه والسدي عاقبته وابن زيد حقيقته . وكل هذه الألفاظ متقاربة المعنى والمراد ما يؤول إليه الأمر من وقوع ما اخبر به القران من أمر الآخرة ولا يحتمل أن يراد به تفسيره .

الرابعة : (سورة يونس (10) قال تعالى بعد ذكر القران بكونه تصديقا لما بين يديه ومنزها عن الافتراء والريب ودعواهم الباطلة فيه وبعد تعجيزهم بطلب الايتان بسورة من مثله : (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) فسر أهل الأثر تأويله هنا بنحو ما تقدم ، أي ما يؤول إليه الأمر من ظهور صدقه ووقوع ما اخبره به ولما كانت عاقبة المكذبين قبلهم الهلاك كان تأويله أن تكون عاقبتهم كعاقبة من قبلهم .

الخامسة : (سورة يوسف 12) جاء فيها قوله تعالى : (وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث) (يوسف :6) وقوله حكاية عن الفتيين الذين كانا مع يوسف في السجن .

نبئنا بتأويله (يوسف 32) أي ما رأياه في المنام . وقوله حكاية عنه (قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نباتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) (يوسف : 37) وقوله حكاية عن ملأ فرعون :

(وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) (يوسف 44) وقوله حكاية عن الذي نجا من ذينك الفتيين (أنا أنبئكم بتأويله) (يوسف : 53) وقوله حكاية لخطاب يوسف لأبيه : (يا أبت هذا تأويل رأياي من قبل قد جعلها ربي حقا) (يوسف : 100) وقوله حكاية عنه :

(رب قد أتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث) (يوسف 101) فتأويل الأحاديث والأحلام هو الأمر الوجودي الذي تدل عليه وهو فعل لا قول كما هو صريح في مثل قوله : (نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما) (يوسف : 37) فأخباره بالتأويل هو إخباره بالآمر الذي سيقع في المآل وفي قوله : هذا تأويل رؤياي من قبل ((يوسف :100) أي هذا الذي وقع من سجود أبويه وإخوته الأحد عشر له هو الأمر الواقعي الذي آلت إليه رؤياه المذكورة في أول السورة بقوله تعالى : (إذا قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت احد عشر كوكبا والشمس والقمر آليتهم ساجدين) (يوسف : 4)

السادسة : (سورة الإسراء 17) وفيها قوله : (وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا) (الإسراء : 25) أي مآلا .

السابعة : (سورة الكهف 18) وفيها قوله تعالى حكاية عن العبد الذي أتاه الله رحمة وعلما من لدنه في خطاب موسى : (سأنبئك بتأويل ما لم تستطيع عليه صبرا) (الكهف : 87) وقوله بعد أن نبأه بما تؤول إليه تلك الأعمال التي أنكرها موسى : (ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا) (الكهف : 82) فالإنباء بالتأويل أنباء بأمور عملية ستقع في المآل لا بالقوال فتبين من هذه الآيات أن لفظ التأويل لم يرد في القران إلا بمعنى الأمر العملي الذي يقع في المآل تصديقا لخبر أو رؤيا أو لعمل غامض يقصد به شيء في المستقبل فيجب أن تفسر آية آل عمران بذلك ولا يجوز أن يحمل التأويل فيها إلى المعنى الذي اصطلح عليه قدماء المفسرين وهو جعله بمعنى التفسير كما يقول ابن جرير : القول في تأويل هذه الآية كذا ، ولا على ما اصطلح عليه متاخروهم من جعل التأويل عبارة عن نقل الكلام عن وضعه إلى ما يحتاج في إثباته إلى دليل لولاه ما ترك ظاهرا اللفظ ومثله قول أهل الأصول : التأويل صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل

إن تداول كلمة التأويل في القران بهذا العدد الذي أوردناه هي التي جعلت مسالة التأويل متداولة عصر نزول القران قصد فهم بعض الآيات المشكلة المعنى . الم يسال المسلمون الرسول صلى الله عليه وسلم عن المراد بالظلم في قوله تعالى : الذين امنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم : (الأنعام أ 82) فشرح لهم الرسول بأنه الشرك مستشهدا بما ورد في الآية من سورة لقمان : يا بني لا تشرك بالله . إن الشرك لظلم عظيم : (لقمان أ 13)

الم يسأل عمر بن الخطاب عن معنى الأب الوارد في الآية " وفاكهة وأبا " وهو ما يفسّر من خلال هذين المثالين أن مسالة تفسير القران والوقوف على معانيه ومضامينه ليس بالأمر الهيّن ، وليس في متناول كل واحد .

وإذا كان المسلمون الأوائل لم يتساهلوا في التأويل لأنهم كانوا يرون انه يوقع صاحبه في كثير من المزالق خاصة في تلك الفترة الم يشر أبو بكر الصديق إلى هذا التهيّب بقوله " أي ارض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في القران برأي.

إن هذه المواقف وان كان القصد منها عدم التجزء على القول في القران بغير علم فقد رآها البعض تنكبا عن التأويل وتجريح من يقوم به ، وهو ما جعل من المتأخرين بحدث فارقا بين التأويل المقبول ، والتأويل المذموم ، ليجعلوا من التأويل دائرة محرّمة لا يمكن الولوج إليها

إلا من رضوابه وكان على مذهبهم . وهو ما جعل بعض تأويلات الفرق الكلامية غير مستساغة باعتبارهما خروجا عن مدلولات النص إن لم نقل تحريفا له ، والقول فيه بغير علم .

وعلى هذا الأساس فان مصطلح التأويل اكتسب على مرّ التاريخ دلالة غير حسنة ، يظهر هذا من خلال ما يرووول من الأقوال في هذا الشأن كالذي يروى عن أبي طالب من انه حين رفع الأمويون المصاحف على ألسنة الرماح في موقعة صفين قصد الاحتكام إلى القران وهو ما احدث انشقاقا في صفوف جيشه فقال علي : " بالأمس حاربناهم على تنزيله ، واليوم نحاربهم على تأويله "ولكن من الضروري أن نشير هنا إلى أن قولة الإمام علي لا تتضمن معنى التأويل المقصود اليوم في الدراسات الحديثة القرآنية منها وغير القرآنية دليلنا على ذلك أن عليا كان يرى أن القران حمّال أوجه أي أن معانيه تختلف من قارئ إلى آخر

في قولته المشهورة ردّا على المحكمة " القران بين دفتي المصحف لا ينطق به وإنما يتكلّم به الرجال " الم يقل هو أيضا إلى ابن عباس في جداله للخوارج " لا تجادلهم بالقران ، فان القران حمّال أوجه بل جادلهم بالسنّة "

وهذا ما أفضى إلى تعدد التأويلات واختلاف التفاسير حول الآية الواحدة ، بدأ من القرن الأول للهجرة ، الشيء الذي جعل التأويل ينمو ويتسع خلال القرون الموالية إلى عصرنا الحاضر .

التفسير والتأويل اية علاقة :

ان مصطلح التفسير وان بدى مصطلحا مستقلا بنفسه فانه في الواقع يدخل في علاقة ثنائية توافقية أحيانا وتقابلية أحيانا أخرى مع مصطلح التأويل ، حيث نجد الكثير من المفسرين يمارسون هذين المصطلحين إمّا تلميحا أو تصريحا . وذلك للعلاقة المتينة بين المعنى المراد الوصول إليه وبين كل من التفسير والتأويل خاصة إذا كانت غاية المفسّر " التوصّل الى فهم معاني القران واستنباط حكمه ليفاز به الى السعادة الدنيوية والأخروية " حسب عبارة التهانوي .

هذه العلاقة تتجلى لنا أيضا من خلال الموقف اللغوي الذي تذكره المعاجم اللغوية وهو اعتبار التفسير والتأويل من المترادفات

جاء في لسان العرب " سئل أو العباس احمد بن يحي عن التأويل فقال : " التأويل والمعنى والتفسير واحد " (11) هذه العلاقة البادية هنا بين التفسير والتأويل وأنهما شيء واحد تظهر في الاشتراك في معنى الإقبال على النص بحثا عن مقاصده . لكننا نلاحظ ورغم هذه العلاقة والاتفاق في المقصد والغاية ، فان كلا منهما أصبح وكأنه علما قائما بذاته ومستقلا عن الأخر . وأصبح التفسير عند القدامى يحتل الدرجة الأولى في الاعتبار . والمستوى الأول في قراءة القران وتفسيره الى درجة أن البعض من الدارسين ذهب الى اعتباره اعم وأشمل إن لم نقل أهم من التأويل حسب رأي الاصبهاني الذي جاء فيه " التفسير اعم من التأويل ، وأكثر استعماله في الألفاظ وأكثر استعمال التأويل في المعاني

(11) ابن منظور : لسان العرب : ج 11ص 33 .

كتأويل الرؤيا " (12) هذه التفرقة بين العلمين (التفسير والتأويل) نلحظها بكل جلاء عند الشافعي مثلا الذي قسم العلوم الى علمين " علم العامّة ، وهو علم لا يمكن فيه الغلط من الخبر ولا التأويل ولا يجوز فيه التنازع ، وعلم الخاصة ما كان منه يحتمل التأويل ويستدرك قياسا " (13) وان كان الشيخ محمد الطاهر بن عاشور يرى أن هذه الأقوال لا عبرة بها وهي عنده مجرد اختلافات لفظية ، وهي كلها اصطلاحات لا مشاحة فيها ، لان التأويل مصدر أوّله إذا أرجعه الى الغاية المقصودة ، والغاية المقصودة من اللفظ هو معناه وما أراده منه المتكلم به من المعاني ، فساوى التفسير على انه لا يطلق إلا على ما فيه تفصيل معنى خفي معقول .

وهو ما يؤكد بقوله تعالى " هل ينظرون إلا تأويله " أي ينتظرون إلا بيانه الذي هو المراد منه " (14) وهو ما يفيد أنّ ابن عاشور لا يرى فرقا بين التفسير والتأويل . ومع ذلك فان هناك العديد من الدراسات المعاصرة يذهب أصحابها الى أن التفسير غير التأويل للفوارق الواضحة بين العلمين " فكأنّ التفسير مهمته مقتصرة على تبيّن الوظيفة الافهامية للكلام ، وهي وظيفة أساسية في الكتابة العلمية فلا يمثّل التفسير إلاّ الشرح المتعلّق بالمعنى الحرفي الواضح في المهمة الإخبارية في النص " (15) .

وهذه الفروق التي ارتآها بعض الدارسين بين التفسير والتأويل يمكن تلخيصها في الجدول التالي :

---

(12) السيوطي : الإتقان في علوم القران . ج2ص149

(13) الشافعي : الرسالة بتحقيق احمد محمد شاكر (دت) ص357.

(14) (14) التحرير والتنوير ، ج 17/1

(15) (15) الهادي الجطلاوي : قضايا اللغة في كتب التفسير .ط .دار محمد علي الحامي تونس 1998.ص27

(1) على مستوى اللفظ

التفسير

- يختص بالافاظ ومفرداتها
- شرح القران وغيره من النصوص
- يكون للافاظ الغربية
- للكلام الذي يتضمن قصة او سبب نزول

التأويل

- يرتبط بالمعاني والجمل
- مقصور على القران دون غيره من أساليب النثر الأخرى كالخطبة مثلا
- انه ترجيح لأحد المعاني المحتملة والمناسبة
- هذا الترجيح يكون للألفاظ كما يكون للحمل

(2) على مستوى النص

التفسير

- يتعلق بالرواية أكثر منه بالدراية
- مقصور على الإتباع والسماع
- لا يحتمل الاجتهاد أو الاستنباط
- يقوم على معرفة الحذق ، والتماس الترابط ، والسياق العام

من هذا الجدول يمكن أن نستنتج أن كل فرقة من الفرق وكل مفسر من المفسرين له معنى اصطلاحي لكل من التفسير والتأويل يتفق مع المفهوم الفكري لكل منهما من ناحية ، ومع القصد من التأويل من ناحية أخرى .(16) ومن هنا وقع التفريق بين التفسير والتأويل ، وكان كلا منهما مستقل عن الأخر .

---

(16) عز الدين إسماعيل : نصوص قرآنية في النفس الإنسانية بيروت 1975 صص16،17.

إلا أن وظيفة التفسير التي يراها بعض الدارسين متوقفة على إيراد المعنى من اللفظ المستوحات من هذا الجدول الذي اشرنا إليه مجانية للصواب لأنه كما يقول الطاهر ابن عاشور " لو كان التفسير مقصورا على بيان معاني مفردات القران من جهة العربية لكان التفسير نزرا . ونحن نشاهد كثرة أقوال السلف من الصحابة : فمن يليهم في تفسير آيات القران وما أكثر ذلك الاستنباط برأيهم وعلمهم ... فتبيّن على القطع أن كل مفسّر قال في معنى الآية بما ظهر له باستنباطه " (17) لان التفهم مع قلّة القراءة أفضل من كثرة القراءة بلا تفهّم . ولذلك قال الغزالي .

" التدبّر في قراءته إعادة النظر في الآية والتفهم أن يستوضح من كل أية ما يليق بها كي تتكشف له من الإسرار معان مكنونة لا تتكشف إلا للموفقين " الى أن يقول : " ومن موانع الفهم أن يكون قد قرأ تفسيرا واعتقد أن لا معنى لكلمات القران إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس أو ابن مجاهد ، وان ما وراء ذلك تفسير بالرأي فهذا من العجب العظيمة " (18)

ولذلك نرى إن كتب التفسير التي تنعت بالتفسير بالمنثور لم تخل من التفسير بالرأي إن لم نقل التأويل فيما حقه التأويل . لان هذه التفاسير قد جمع أصحابها بين المنقول والمعقول حيث لا تضارب بينهما عندهم لأن صحيح المنقول لا يخالف صريح المعقول.

---

(17) ابن عاشور : التحرير والتنوير ، ص30

(18) الغزالي : أحياء علوم الدين : دار لكتب العلمية ، بيروت 1996 ج 1صص 333.334

منشأ التفسير والتاويل

لقد مثّلت إشكالية المحكم والمتشابه المتضمنة في الآية السابعة من سورة آل عمران في قوله تعالى " هو الذي انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أم الكتاب . وآخر متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وبابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كل عند ربّنا . وما يذكّر إلا أولوا الألباب " (آل عمران آ .7) .

أراء العلماء في معنى المحكم والمتشابه :

اختلف العلماء في تحديد معنى المحكم والمتشابه في القران اختلافات كثيرة منها :

إن الحكم هو الواضح الدلالة الذي لا يحتمل لا النسخ ولا التأويل ، أما المتشابه فهو الخفي النص الذي يتعذر إدراك معناه لا نقلا ولا عقلا وهو الذي استأثر الله بعلمه مثل الأمور الغيبية .

تعريف الفخر الرازي :

أما الرازي فيعرف المحكم بأنه ما كانت دلالته راجحة وهو النص ، والظاهر لاشتراكهما في حصول الترجيح

أمّا المتشابه فما كانت دلالته غير راجحة ، وهو المجمل والمؤول والمشكل لاشتراكهما في ان دلالة كل منهما غير راجحة .(19)

تعريف ابن قتيبة :

أما ابن قتيبة فقد اعتمد على المصطلح اللغوي في تعريفه للمتشابه حيث يقول : " واصل المتشابه الى شبيه اللفظ في الظاهر والمعنيان مختلفان " مستشهدا بقوله تعالى : " وأتو به متشابه " (البقرة أ 25) أي متفق المناظر مختلف الطعوم . ومنه يقال : " اشتبه عليّ الأمر ، إذ أشبه غيره فلم تكد تفرق بينهما " (20) .

---

(19) الرازي التفسير الكبير ج7 /ص146.

(20) ابن قتيبة : تاويل مشكل القران شرح ونشر احمد صفر ، المكتبة العلمية بيروت ط3سنة1981ص101.

كما انه يعتبر أن ، كل ما غمض ودق متشابه وان تقع الحيرة فيه من جهة الشبه بغيره ويندرج تحت المتشابه المشكل

تعريف الشيخ الطاهر بن عاشور :

المحكم عنده جاء من الإحكام في الأصل وهو المنع لقول جرير لبني حنيفة احكموا سفهاءكم " إني أخاف عليكم أن اغضب "

واستعمل الأحكام في الإتقان والتوثيق ، لان ذلك يمنع تطرق ما يضاد المقصود .

كما أطلق على واضح الدلالة لأن في وضوح الدلالة منعا لتطرق الاحتمالات الموجبة للتردّد في المراد .

امّا المتشابه فهو يطلق على خفاء الدلالة على المعنى لان تطرق الاحتمال في معاني الكلام يقضي إلى عدم تعيين احد الاحتمالات وذلك مثل تشابه الذوات في عدم تمييز بعضها عن بعض .(21)

ومن هنا فان الآيات المتشابهات تكون في المقابل المحكمات لأنها دلت على معان تشابهت في أن يكون كل منها هو المراد . وتشابهها يكون في صحة القصد أيها أي لم يكن بعضها أرجح من بعض .

القران محكم ومتشابه في نفس الوقت :

القران دل على انّه بكلّيته محكم ، ودل على أنه بكلّيته متشابه ، ودل على أن بعضه محكم وبعضه متشابه .

a. الدليل على أن القران كلّه محكم لقوله تعالى : " كتاب أحكمت آياته ثم فصلت " (هود أ 1).

ففي هذه الآية إشارة إلى أنّ جميعه محكم ، والمراد بالمحكم هنا كونه كلاما حقا فصيحا في ألفاظه ومعانيه .

---

(21) ابن عاشور (محمد الطاهر) : التحرير والتنوير . الدار التونسية لنشر ج 3/ص154.

ما دلّ على انه متشابه قوله تعالى : " كتابا متشابها مثاني ." (الزمر أ 23) ، ومعناه انه يشبه بعضه متشابه قوله تعالى " هو الذي انزل عليه الكتب منه آيات محكمات هنّ أم الكتب ، وأخر متشابهات " (آل عمران أ 7)

وقد اتفق العلماء على أنه " لا تنافي بين كون القران كله محكما أي متقنا وبين كونه متشابها، أي يشبه بعضه بعضا في الإتقان والإحكام ، وكونه منقسما الى ما اتضحت دلالته على مراد الله وما خفيت دلالته " (22)

أنواع المتشابهات في القران :

1- النوع الأول :

ما لم يكن للبشر أن يصلوا إليه مثل العلم بذات الله ومعرفة صفاته ، والعلم بقيام الساعة ، ونحو ذلك من الأمور الغيبية التي استأثر الله تعالى بعلمها يؤكد ذلك بقوله تعالى : " وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو " (الأنغام أ 59) . وقوله أيضا " إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ما ذا تكتسب غدا ، وما تدري نفس بأي ارض تموت أن الله عليم خبير " (لقمان أ 134) .

يقول محمد عبه في هذا النوع من التشابه (وورود المتشابه بهذا المعنى في القران ضروري ، لان من أركان الدين ومقاصد الحي الأخبار بأحوال الآخرة فيجب الإيمان بما جاء به الرسول (ص) من ذلك على انه من الغيب ونقول انه لا يعلم من تأويل ذلك أي حقيقة ما تؤول إليها هذه الألفاظ إلا الله والراسخون في العلم وغيرهم في هذا سواء ، وإنما يعرف الراسخون ما يقع تحت حكم الحس والعقل فيقفون عند حدهم ، ولا يتطاولون إلى معرفة الحقيقة ما يخبر به الرسول عند عالم الغيب ، لأنهم يعلمون انه لا مجال لحسّهم ولا لعقلهم فيه وإنما سبيله التسليم ، فيقولون آمنا كلّمن عن ربّنا " (23) .

---

(22) الزرقاني (الشيخ محمد عبد العظيم) : مناهل العرفان دار احياء الكتب العربية 1372 هـ ج 2 ص 100

(23) تفسير المنار دار الكتب العلمية –بيروت 1999 ج 139/3.

2 - **النوع الثاني** :

في إمكان الإنسان معرفته كالمتشابهات التي نشأ فيها التشابه من الإجمال والبسيط والترتيب ونحو ما سبق من الألفاظ الغربية والإحكام المغلقة .

3- **النوع الثالث** :

ما يعلمه خواص العلماء دون عامتهم ، وهم الراسخون في العلم . الذين يعرفون متشابهه ومؤوله وناسخه ومنسوخه ، وحقيقة مجازه ، وهم الذين نعتهم الله بقوله تعالى : " فسأل أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون "

وفي هذه الحالة يثار إشكال وهو كيف يمكن تفسير قول تعالى " وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به " يجب الوقوف عند قوله " وما يعلم تأوله إلا الله " وما على الراسخين في العلم إلا التسليم دون نظر وتأمل . أم إذ الوقوف لا يكون ؟ فيكون للراسخين في العلم حق التأويل .

هذه المسالة اختلفت فيها الأنظار والقول الفصل في ذلك في نظرنا ما ذهب إليه ابن قتيبة حيث يقول " فان لم نر المفسرين توقفوا عن شيء من القران فقالوا : هذا متشابه لا يعلمه إلا الله ، بل أمره كله على التفسير " ولو لم يكن للراسخين في العلم حظ في المتشابه إلا أن يقولوا " آمنا به كل من عند ربنا " لم يكن للراسخين فضل على المتعلمين بل على جهلة المسلمين لأنهم يقولون (أمنا به كل من عند ربنا) (24)

وقد أصّل الراغب الاصبهاني هذه الأنواع في قوله " المتشابه على ثلاثة أنواع :

ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليه ، كوقت الساعة وخروج الدّابة ونحو ذلك وضرب للإنسان سبيل على معرفته كالألفاظ الغربية والإحكام المغلقة ، وضرب متردد بين الأمرين يختص به بعض الراسخين في العلم ويخفي على دونهم ، وهو المستشار إليه بقوله (ص) لابن عباس " اللهم فقه في الدين وعلّمه التأويل " (رواه احمد في مسنده) (25)

---

(24) ابن قتيبة نفس المرجع ص 100.

(25) الاصبهاني المفردات في غريب القرآن دار قهرمان للطباعة والنشر –استنبول- تركيا 1986. ص373-374

وكان ابن عباس يقول : " أنا من الراسخين في العلم أنا اعلم تأويله " والى هذا الرأي الأخير أيضا ذهب محمد عبده إلى أن الوقوف عند قوله تعالى " يقولون أمنّا به كل من عند ربنا " . " لا ينافي العلم فأنهم الراسخون في العلم إنما سلموا بالمتشابه في ظاهره أو بالنسبة إلى غيرهم لعلهم باتفاقه مع المحكم ، فهم لرسخوهم في العلم ووقوفهم على حق اليقين لا يضطربون ولا ينتزعون بل يؤمنون بهذا وبذلك على حدّ السواء ولا غير فالجاهل في اضطراب دائم ، والراسخ في ثبات لازم " (26)

لماذا المتشابه في القران ؟ وما هي الحكمة من إيراده ؟

يذكر القاضي عبد الجبار في تميزه بين لغة الخطاب ألقراني وبين مضمونه ففي خصوص ما يتعلق بلغة الخطاب نجد أن بعض الأبيات ما يمكن تستقل بنفسها في البيان والأنباء عن المراد منه .

وهناك آيات أخرى لا يمكن ان تستقل بنفسها من حيث البيان لذلك فإنها تحتاج إلى من يبينها.

ومن هنا فانّ القاضي عبد الجبار يميز بين أنواع الخطاب والتي عنده :

- نوع يفهم معناه الحقيقي من خلال ظاهره بحيث لا يحتاج إلى معرفة خارجية مستقلة عنه .
- نوع يحتاج في معرفته إلى معرفة أخرى تعين عليه أما قرينة ملازمة عقلية او لغوية
- نوع يتعذر فهمه بمجرد النظر في النص بحيث لا يفهم إلا بمعرفة عقلية " ولا يخرج خطاب الله اجمع عن هذه الثلاثة الأنواع والقرائن قد تكون متصلة سمعا وقد تكون منفصلة سمعا وعقلا " .(27)

أما من حيث مضمون الخطاب القرآني فانه يرى أن هناك ثلاث مستويات :

1- مستوى لا يمكن أن يعلم من جهة العقل كالأحكام الشرعية والفرائض

2- مستوى يمكن أن يعلم بأدلة العقل كعدم رؤية الله في الآخرة وأمور أخرى ذات علاقة بالوعد والوعيد.

---

(26) تفسير المنار .ج3/ص139

(27) متشابه القران ص ص 23-22 .

3- مستوى من الخطاب لا يمكن أن يعلم إلا بالدليل العقلي مثل مسائل التوحيد والعدل وآيات الصفات .

ولما كان المتشابه مما ورد ذكره في القران بل نجد في القران من الآيات التي يدل ظاهرها على انه كله متشابه ، فان الطاعنين في القران يعيبون عليه ما تضمنه من متشابهات حيث ذهبوا إلى القول : " إذا كان تعالى إنما انزل القران بيانا للناس وهدى لهم فكيف يصحّ أن يودعوه المتشابه الذي ليس ببيان بل يحتاج إلى بيان " (28) ولما كان القران هدى للناس وبينات إذن ؟ فلماذا أراد الله بإنزال المتشابه فيه ؟

ولإبعاد هذه المطاعن عن القران أراد المتكلمون وعلماء التفسير دفع هذا الإشكال وبيان الحكمة من المتشابه بما يلي :

- ما ذكره ابن قتيبة من انه : لو كان القران كله ظاهرا مكشوفا حتى يستوي في معرفته العالم والجاهل لبطل التفاضل بين الناس وسقطت المحنة ، وماتت الخواطر ومع الحاجة تقع الفكرة والحيلة ، ومع الكفاية يقع العجز والبلادة
- كما انه لو كان كل فن من العلوم شيئا واحدا ، ولم يكن عالم ولا متعلم ولا خفي ولا جليّ لانّ فضائل الأشياء تعرف بأضدادها " (29)
- أما الفخر الرازي فيذكر جملة من الأسباب منها على سبيل المثال :
- انه متى كانت المتشابهات موجودة ، فكان الوصول إلى الحق أصعب واشق ، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب .
- لو فرضنا أن القران كله محكم بالكلية لما كان مطابقا إلا لمذهب واحد وكان تصريحه مبطلا لكل ما سوى ذلك المذهب ، وذلك مما ينفر أرباب المذهب عن قبوله عن النظر فيه ، فالانتفاع به إنما حصل لما كان مشتملا على المحكم والمتشابه .

---

(28) القاضي عبد الجبار : المغني ، ج 16 (إعجاز القرآن) ص 371

(29) ابن قتيبة : تأويل مشكل القران ص 86

يعلق محمد عبده على هذا بقوله " لا ادري كيف أجاز له عقله الرازي أن يقول : أن القرآن جاريا لمتشابهات ليستميل أهل المذاهب إلى النظر فيه . وانّ هذا طريق الحق ؟ أين كانت هذه المذاهب عند نزوله ؟ ومن اهتدى من أهلها بهذه الطريقة ؟ (30)

لما كان القران مشتملا على المحكم والمتشابه فان الناظر فيه في حاجة الى الاستعانة بدليل العقل ليتخلص من ظلمه التقليد والوصول إلى ضياء الاستدلال والحجة . امّا لو كان كله محكما لم يفتقر إلى التمسك بالدلائل العقلية فحينئذ بقي في الجهل والتقليد (31) .

أما محمد عبده فانه يضيف إلى ما أورده الفخر الرازي بما مفاده

أ- أنّ الله انزل المتشابه ليمتحن قلوبنا في التصديق به فانه لو كان كل ما ورد في الكتاب معقولا واضحا لا شبيهة فيه عند احد الأذكياء ولا من البلداء لما كان في الإيمان شيء من معنى الخضوع لأمر الله تعالى والتسليم لرسله .

ب- جعل الله المتشابه في القران حافزا لعقل المؤمن إلى النظر كيلا يضعف فيموت ، فان السهل الجليّ جدا لا عمل للعقل فيه والدين اعز شيء على الإنسان ، فإذا لم يجد فيه مجالا للبحث يموت فيه . وإذا مات لا يكون حيا بغيره ، فالعقل شيء واحد إذا قوي في شيء قوي في كل شيء والعكس صحيح ولذلك قال تعالى " الراسخون في العلم " ولم يقل والراسخون في الدين لان العلم اعمّ واشمل

أما الشيخ الطاهر بن عاشور فانه يكاد يتفق مع ما أورده علماء التفسير في هذه المسالة وخاصة الفخر الرازي ومحمد عبده مع التأكيد على أن من مقاصد القران من المتشابه أمرين آخرين احدهما كونه شريعة دائمة . وذلك يقاضي فتح أبواب عبارته لمختلف استنباط المستنبطين حتى تؤخذ منه أحكام الأولين والآخرين وثانيهما تعويد حملة هذه الشريعة وعلماء الأمة بالتنقيب والبحث .واستخراج المقاصد من عويصات الأدلة حتى تكون طبقات علماء الأمة صالحة في كل زمان ومكان لفهم تشريع الشرع ومقاصده من

(30) تفسير المنار ج 141/3

(31) الرازي : التفسير الكبير ج 7 /ص 149 وأيضا أساس التقديس ط دار الفكر اللبناني بيروت ص 138.

التشريع ، فيكونوا قادرين على استنباط الأحكام الشرعية ولو صيغ لهم التشريع في أسلوب سهل التناول لاعتمدوا العكوف على ما بين أنظارهم في المطالعة الواحدة . فإذا علمت هذا علمت أصول السبب في وجود المتشابه .

ولقد كانت هذه الإشكالية (إشكالية المحكم والمتشابه) ليست فقط أساس التشريع لإمكان التفسير المراعي في هذه المسالة سواء أكان تفسيرا بالمأثور ام تفسيرا بالرأي (الاجتهاد / التأويل) بل كانت أساسا لكل اختلاف في المعنى ليبقى المحكم دلالته على الوضوح والانكشاف والمتشابه دلالة الخفاء والاشتباه

وعلى ضوء ما ورد في القران الكريم من محكم ومتشابه ، وحقيقة ومجاز تعددت اتجاهات التفسيير في القران . من تفسير بالمأثور إلى تفسير بالراية إلى التفسير الإشاري ، ولكل من هذه التفاسير أنصار ومعارضون انعكس ذلك بصورة مباشرة على الآيات القرآنية التي تحمل أكثر من دلالة وبصورة خاصة الآيات المتعلقة بالذات الإلهية ، وهو ما سنقف عنده عند إيراد نماذج في الغرض وبيان وجه التأويل نحوها .

آيات الصفات الواردة في القران بين التفسير والتاويل :

1) تفسير السلف لهذه الآيات

تعريف السلف : جاء في اللسان " والسلف ايضا من تقدمك من أبائك وذوي قرابتك الذين هم فوقك في السنّ والفضل .

...ولهذا سمي الصدر الأول من التابعين السلف الصالح " (1) ومن هذا المعنى يستفاد ان كلمة السلف تطلق ويراد بها أصحاب القرون الثلاثة الأولى الذين جاء ذكرهم في الحديث المروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم " (رواه البخاري ومسلم) وعقيدة السلف قائمة أساسا على الكتاب والسنة جملة وتفصيلا مع التسليم الكامل والانقياد التام لكل ما وصف الله تعالى به نفسه وينفون ما نفاه تعالى عن نفسه ، وما نفاه عنه نبيه .

بحيث اثبتوا الصفات الواردة في القران من غير تكييف ولا تمثيل ، ونفيهم من غير تحريف ولا تعطيل (2) والسبيل إلى هذا الموفق مراده عندهم

(1) تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقات في جميع صفاته وأفعاله .

(2) إثبات جميع الصفات الواردة في القران والسنة

(3) اليأس وقطع الطمع في إدراك كيفية صفاته تعالى وحاصل مذهب السلف في الآيات الخبرية هو ما ذكره الرازي بقوله " حاصل هذا المذهب أن هذه المتشابهات يجب القطع فيها بانّ مراد الله تعالى منها شيء غير ظاهرها . ثم يجب تفويض معناها إلى الله تعالى ، ولا يجوز الخوض في تفسيرها ، تمسكا بقوله تعالى :

---

(1) ابن منظور : لسان العرب ، ج 9 ص 158

(2) أبو بكر خليل الموصلي : شعبة العقيدة ، ص62

وما يعلم تأويله إلا الله " وأورد الرازي حججا كثيرة (1) وعلى هذا الأساس اخذ السلف آيات الصفات على ظاهرها ، داعين إلى إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ، لان من شبّه الله يخلقه كفؤ . ومن جحد ما وصف به نفسه فقد كفر.وانه ليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه .فمن خالف هذا واثبت لله ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ، ونفي عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى (2) والى هذا أشار البغوي بعد أن ذكر جملة من صفات الله تعالى وذكر أدلتها فقال : " فهذه ونظائرها صفات الله تعالى ورد بها السمع : يجب الإيمان بها ، وإمرارها على ظاهرها معرظا فيها عن التأويل مجتنبا عن التشبيه ، معتقدا ان الباري سبحانه وتعالى لا يشبه شيء من صفاته صفات الخلق ..." إلى أن يقول " وعلى هذا مضى سلف الأمة ، وعلماء السنة ، تلقوها جميعا بالإيمان والقبول ، وتجنبوا فيها عن التمثيل والتأويل ، ووكلوا العلم فيها إلى الله عز وجل " (3)

هذا الموقف الذي وقفه السلف من آيات الصفات اعتبره إلا شاعرة من التفويض فكأنهم فوضوا الأمر لله في هذه الآيات من حيث مدلولاتها ومرادها ، وان موقفهم منها مجرد الإيمان بألفاظ القران والحديث من غير فهم لمعاني نصوصها ومن هؤلاء الفخر الرازي كما اشرنا إلى ذلك سالفا .

---

(1) الرازي : أساس التقديس : نفس المرجع ص ص 133-134

(2) ابن كثير : تفسير القران العظيم ، ط دار المعرفة للطباعة والنشر 1388 هـ ، ج 2 ص220 .

(3) شرح السنة للبغوي : ط المكتب الإسلامي 1400 هـ ج 1 ص 170.

إنّ مقولة التفويض التي ينسبها الأشاعرة والمعتزلة إلى السلف مجانبة للصواب . لان القول بالتفويض عند السلف معناه " التفويض بعلم كيفيات الصفات إلى الله تعالى . لان هذا من العلم الذي استأثر الله تعالى به . لا يعلمه احد من خلقه ولا ينبغي لأحد أن يبحث في كيفية الصفات . والواجب على الجميع أن يقطعوا الطمع في إدراك كيفية الصفات ، كما قطعوا في إدراك كيفية الذّات " (4)

أية الاستواء على العرش

هذا النوع من التفويض يتجلى في أقوال أئمة السلف مثل الإمام مالك حينما سئل عن قوله تعالى " الرحمن على العرش استوي " (طه : أ 5) كيف استوي ؟ فقال : الاستواء غير مجهول ، وكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة "

فالإمام مالك بيّن أن معنى الاستواء ظاهر وثابت ومعلوم ولكن كيفية ذلك الاستواء غير معلوم لنا ولا نعقله ، والواجب علينا أن نفوّض إلى الله كيفية ذلك الاستواء ط (5)

وعن سفيان بن عيينة قال : سئل ربعية بن أبي عبد الرحمن شيخ الإمام مالك عن قوله تعالى " الرحمن على العرش استوى " (طه .أ 5)

كيف استوي ؟ قال : الاستواء غير مجهول . والكيف غير معقول . ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التصديق (6) وكذلك يقولون في جميع الصفات الواردة في القران والسنة " وكلمتهم فيها واحدة من أولهم إلى آخرهم ، ولم يؤولوها تعطيلا ، ولم يحرفوها تبديلا ، ولم يثبتوها تمثيلا بل اثبتوا بلا تمثيل ، ونزهوا بلا تعطيل " (7)

وقد اجمعوا على هذا كله كما نقله ابن عبد البرعنهم بقوله " وهذا هو المذهب الصحيح والطريق القويم الحكيم وذلك لوجهين :

---

(4) أبو بكر خليل الموصلي : شعبة العقيدة .ص ص 69،70

(5) الموصلي : نفس المرجع ، ص 70

(6) (6) الكافي : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة . دار طبية للنشر والتوزيع . ج 3 ص 398

(7) الموصلي : شعبة العقيدة . ص 67

الأول : انه تطبيق تام لما دلّ عليه الكتاب والسنّة من وجوب الأخذ بما جاء فيها من أسماء الله وصفاته ، كما يعلم ذلك من تتبعه بعلم وإنصاف .

الثاني : إن الحق أما أن يكون فيما قاله السلف أو فيما قاله غيرهم والثاني باطل لأنه يلزم منه أن يكون السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان تكلموا بالباطل تصريحا أو ظاهرا ولم يتكلموا مرة واحدة لا تصريحا ولا ظاهرا بالحق الذي يجب اعتقاده وهذا يستلزم أن يكونوا أما جاهلين بالحق .

وإما عالمين به لكن كتموه وكلاهما باطل وبطلان اللازم يدل على بطلان الملزوم ، فتعيّن أن يكون الحق فيما قاله السلف دون غيرهم " (8)

ومن الآيات الأخرى الدالة على صفاته تعالى :

صفة الإتيان والمجيء والنزول :

وهي من الصفات الخبرية الثابتة لله تعالى يظهر ذلك في قوله تعالى :

" هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام " (البقرة 210) وقوله تعالى " وجاء ربك والملك صفا صفا " (الفجر أ 22)

كما وردت هذه الصفات في أحاديث كثيرة منها :

ما جاء في حديث رؤية الله تعالى في الآخرة المروي عن ابي هريرة : ..... فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم ، فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربّنا ، فإذا جاء ربنا عرفناه ، فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون . فيقول : أنا ربّكم ، فيقولون : أنت ربّنا فيتّبعونه ..." (9) .

---

(8) التمهيد : لابن عبد البر .ط 2 وزارة الأوقاف المغربية 1377 هـ ج 7 ص 145

(9) البخاري : في التوحيد ، باب قوله تعالى (وجوه يومئذ ناظرة) ج13. ص 419 ، فتح الباري رقم 7437.

يقول الإمام ابن خزيمة مبينا مذهب السلف في هذه المسالة " نشهد شهادة مقر بلسانه مصدّق بقلبه مستيقن بما في هذه الأخبار من ذكر نزول الرب من غير أن نصف الكيفية ، لان نبيذنا المصطفى لم يصف لنا كيفية نزول خالقنا إلى سماء الدنيا ، وأعلمنا انه ينزل ، والله جلّ جلاله لم يترك ولا نبيّه عليه السلام بيان ما بالمسلمين إليه حاجة من أمر دينهم ، فنحن قائلون مصدّقون بما في هذه الأخبار من ذكر النزول وفي هذه الأخبار ما بان وثبت وصحّ ان الله جلّ وعلا فوق سماء الدنيا الذي اخبرنا نبيّنا صلّى الله عليه وسلم انه ينزل إليه " (10) وهو ما يفيد أن السلف قد اثبتوا صفة الإتيان والمجيء دون تحريف ولا تعطيل وامنوا بها دون ما تأويل ، أو تفسير لا يليق بذاته وصفاته لأنه تعالى (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) .

(10) ابن خزيمة التوحيد واثبات صفات الرب ، نشر دار الكتب العلمية ، بيروت 1403 هـ ص 125 .

المبادئ التي استند عليها السلف في تفسيرهم آيات الصفات

1) اعتمد السلف على القران والسنة كمصدر استمدوا منه آراءهم في العقيدة والفكر والأخلاق والسلوك ، وعليها قاسوا كل مذهب ورأي فما وافقهما قبلوه ، وما خالفهما رفضوه .

2) رفض تأويل الشرع ورد محاولة إخراجها على ظواهرها إلى معالي خاصة يزعم أصحابها أنها هي المقصودة من وراء هذه الظواهر . ذلك لان التأويل كان بابا ولجت منه طوائف عديدة كالمتكلمين والفلاسفة ، وبعض الصوفية وطوائف من الباطنية في أرائها المتعارضة مع نصوص الشرع ، بدعوى التعارض بين النقل والعقل ، ومن ثم عملوا على إزالة هذه التعارض عن طريق تأويل النصوص الدينيّة .

وقد قام علماء السلف يدحض ما استندوا إليه ، وأكدوا على أن ما علم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع البتة ، وقد احتج ابن تيمية لموقف السلف بقوله : " فان الحق لا يتناقض ، والرّسل إنما أخبرت بالحق والله فطر عباده على معرفة الحق ، والرسل بعثت بنميل الفطرة لا بتغيير الفطرة " (11)

وقد استند السلف في رفضهم للتأويل على :

(1) ورود المنع عن التأويل في القران ووصف الله تعالى الذين يتبعون التأويل بالزيغ كما في قوله تعالى :

(11) ابن تيمية : دار تعارض العقل والنقل ج 5.ص45

" فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله . وما يعلم تأويله إلا الله "

(2) إن التأويل مبني في الغالب على الظن ومن هنا تعددت الآراء حول الآية الواحدة ، مثل الاستواء على العرش .

ومجي الله يوم القيامة باعتبارها مسائل عقدية غيبية لا ندرك كنهها ولا كيفيتها. وبذلك يجب التسليم بها كما وردت دون تأويل .

(3) إن التأويل في معظم الأحيان يعود إلى هوى المؤول ومن هنا فليس هناك حدود يقف عندها ، أو قانون يضبط النصوص التي هي في حاجة إلى التأويل ، والتي لا تحتاج .

- إن المستندات التي استند عليها السلف في رفضهم التأويل المبني على الهوى والمجانب للحقيقة لا يعني البتة أن السلف رفضوا العقل والعمل به في مثل النصوص التي تحتاج إلى النظر ويمكن أن نضرب مثلا بموقف احمد بن حنبل باعتباره خير من يمثل السلف ومنهجهم ، نلحظ ذلك من خلال رسالته الموسومة " بالردّ على الزنا دقة والجهمية " التي رفض فيها منهج المتكلمين الذين أولوا القران حسب أهواتهم ، مبينا أن القرآن يفسّر بعضه بعضا ، وانه يجب الاعتماد على القران والسنة في تفسير آياته ، ومع ذلك ردّ عليهم بالمنقول والمعقول .

وكما يقول ابن تيمية فانّ السلف لم يذمّوا الاستدلال والنظر والجدل الذي أمر الله به رسوله .... وإنما ذمّوا الكلام الباطل المخالف للشرع والعقل

وعلى ذلك فان الخطأ ليس في التأويل ولكن الخطأ في مستخدمي التأويل وخاصة التأويل الخاطئ ولقد صوّر لنا ابن رشد تصويرا معبّرا عما سببه التأويل الخاطئ من الفرقة والبعد عن الشرع يقول : " ولما تسلط على التأويل في هذه الشريعة من

لم تتميز له هذه المواضع ، ولا تميّز له الصنف من الناس الذين يجوز التأويل في حقهم اضطرب الأمر فيها وحدث فيهم فرق متباينة يكفّر بعضهم بعضا . وهذا كلّه جهل بمقصد الشرع وتعدّ عليه " (12)

وقد عبّر ابن القيم عما انجر عن التأويل الفاسد من خطر على الدين والأمة جمعاء بقوله " لو علموا أي أصحاب التأويل الفاسد أي باب من الشرّ فتحوا للأمة بالتأويلات الفاسدة وأي بناء للإسلام هدّموا بها ، وأي معاقل وحصون استباحوها لكان احدهم أن يخرّ من السماء أحب إليه من أن يتعاطى شيئا من ذلك .

فكل صاحب باطل قد جعل ما تأوله المتأولون عذرا له فيما تأوله هو ، وقال ما الذي حرّم عليّ التأويل ، وأباحه للآخرين .... وهل اختلفت الأمم على أنبيائهم إلا بالتأويل ؟

وهل وقعت في الأمة فتنة كبيرة أو صغيرة إلا بالتأويل ؟ فمن بابه دخل إليها " (13)

(12)ابن رشد : الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ، منشورات دار الكتب العلمية بيروت 2002، ص128.

(13) ابن القيم : إعلام الموقعين عن رب العالمين ، ط دار الجبل بيروت ، ج 1 ص 250.

تأويل الخلف آيات الصفات

الأشاعرة ومتشابه القران :

1- شرعية التأويل :

يرتبط لفظ التأويل عند علماء الكلام بالنصوص العقدية المتشابهة التي لها علاقة بآيات الصفات من الكتاب والسنة التي يوحي ظاهرها بمشابهة الذات الإلهية للحوادث أو الممكنات التي من صفاتها أنّ لها صورة وجسما ، وهي مؤلفة من أجزاء ، وزمان ومكان وعلى هذا الأساس يعرف الأشاعرة التأويل بأنه " حمل اللفظ على خلاف ظاهره مع بيان المعنى المراد ، فيحكم المكلّف بأن اللفظ معروف عن ظاهره قطعا . ثم يؤول اللفظ تأويلا تفصيليا بأنّ يبيّن فيه المعنى الذي يظّن أنّه المقصود من اللفظ " وعلى هذا الأساس يؤكد التأويليون من الأشاعرة على أنه كما أن تجاوز الحد في التنزيه يؤدي إلى التعطيل فكذلك تجاوز الحد في التشبيه يفضي إلى التجسيم ، لذا فإنّ الوقوف عند ظواهر المفردات التي تتحدث عن الصاف الخبرية دونما تأويل يفضي إلى تشبيه الله تعالى بخلقه ونسبة التجسيم إليه .

ولتجنب الوقوع في تشبيه الذات الإلهية بالذات الإنسانية لا بد من حمل آيات الصفات على خلاف ظاهرها . وتأويلها إلى معان تليق بجلاله انسجاما مع ما قطع به العقل وثبت به التنزيل من أن الله تعالى " ليس كمثله شيء" (الشورة أ 11) .

والذي دعى الأشاعرة إلى التأويل اعتمادهم على جملة من المعطيات هي :

المعطى الأول : تقديم العقل على النقل عند التعارض : وقد اعتبر الرازي هذا الأساس القانون الكلي للمذهب الأشعري في الصفات عموما يقول :

" إعلم أن الدلائل القطعية العقلية إذا قامت على ثبوت شيء . ثم وجدنا أدلة نقلية يشعر ظاهرها باختلاف ذلك فهناك لا يخلوا الحال من احد أمور أربعة .

أ- إمّا أن يصدق مقتضى العقل والنقل فيلزم تصديق النقيضتين وهو المحال .

ب- إمّا أنّ يبطل فيلزم تكذيب النقيضين وهو محال .

ج - و إما إن يصدق الظواهر النقلية ويكذب الظواهر العقلية وذلك باطل لأنه لا يمكن أن نعرف صحة الظواهر النقلية إلا إذا عرفنا بالدلائل العقلية إثبات الصانع ، وصفاته وكيفية دلالة المعجزة على صدق الرسول (ص) وظهور المعجزات على محمد (ص) .

د - لو جوزنا القدح في الدلائل العقلية القطعية صار العقل متهما غير مقبول القول . ولو كان كذلك لخرج مقبول القول في هذه الأصول . وإذا لم تثبت هذه الأصول خرجت الدلائل العقلية عن كونها مفيدة .

فثبت أن القدح في العقل لتصحيح النقل يفضي إلى القدح في العقل والنقل معا وانّه باطل .

ولما بطلت الأقسام الأربعة لم يبق إلا أن يقطع بمقتضى الدلائل العقلية القاطعة بان هذه النقليّة إما أن يقال أنها غير صحيحة أو يقال إنها صحيحة . إلاّ أن المراد منها ظواهرها " (14)

---

(14)الرازي : أساس التقديس ، نفس المرجع ص 125-126

وهذا القانون الذي رسمه الرازي وجد له مكان كبير وواسع عند الأشاعرة قاطبة ، حتى أصبح قضية مسلمة لا تقبل الجدل ولا النقاش ولهذا نجد الأشاعرة المتأخرين منهم أمثار الجزيني والغزالي قد جعلا هذا القانون أصلا من أصول العقائد .

وقد تصدى إلى هذا القانون ابن تيمية وألف فيه مؤلفا سماه " درء تعارض العقل والنقل " والذي استفتح بالقانون الكلي للأشاعرة الذي ذكره الرازي وردّ عليه ، وجمع أوجها عديدة لإبطاله بلغت أربعا وأربعين وجها (15) .

المعطى الثاني : يتمثل في أنّ آيات الصفات ظاهرها يوهم التشبه وانّ ظاهرها غير مراد الله بل المراد منها شيء آخر وبناء على هذا ذهب الأشاعرة إلى تأويلها . ولهذا نجد ابن فورك (ت 406 هـ) أوّل جميع ايات وأحاديث الصفات في كتابه : " مشكل الحديث " نجده يذكر هذه العبارة " ذكر خبر مما يقتضي التأويل ويوهم ظاهره التشبه " (16) ليشرّع بذلك إلى قانون التأويل حتى قال قائلهم :

وكلّ نصّ أوهم التشبيها أوّله أو فوّض ورم تنزحسسى ها

(15)ابن تيمية : درء تعارض العقل والنقل .تحقيق محمد رشاد سالم الطبعة إلى جامعة الإمام بن سعود ، الرياض 1399 ج 86/1 .

(16)الموصلي (أبي بكر خليل ابراهيم) شعبة العقيدة ، دار الكتاب العربي ص 117

قال البيجوري " والمراد بالنص هنا ما قابل القياس والاستنباط والإجماع وهو الدليل من الكتاب أو السنّة سواء كان صريحا أو ظاهرا " (17)

وبناء على هذا اعتبر السّنوسي أنّ التمسك في أصول العقائد بمجرد ظواهر الكتاب والسنة من غير بصيرة في العقل هو أصل ضلاله الحشوية فقالوا بالتشبيه والتجسيم والجهة "(18)

المعطى الثالث : هو أنّ صفات الله وردت عن طريق خبر الآحاد وأحاديث الآحاد عندهم لا تفيد اليقين ولا تثبت بها العقيدة لأنها كلّها ظنّية لا تفيد العلم يؤيد هذا ما قاله الرازي من أنّ " التمسك بخبر الواحد في معرفة الله تعالى صفات الله وأسمائه لقوله تعالى : إنّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئا (النجم أ28) (19) .

ومعنى هذا أنه يجب ترك العمل بالأحاديث الصحيحة التي تلقتها الأمة بالقبول والتي رواها البخاري ومسلم وغيرهما . وهذا خلاف مذهب السلف وأئمة الحديث القائم على العمل بالأحاديث الصحيحة التي تثبت صفات الله تعالى وعلماء السنة كما هو معروف متفقون على أن خبر الواحد يفيد العلم ، ويعمل به مطلقا في العقائد والأحكام على السواء .

---

17)تحفة المريد على جوهرة التوحيد للبيجوري مطبعة السعادة – مصر 1949 ص 128

(18)السنوسي : شرح عقيدة التوحيد ، مطبعة الحلبي ، مصر 1354 هـ ص 502.

(19)أساس التقديس ص 123.

وقد وضّح هذا ابن تيمية اكثر توضيحا فمن أراد البحث فليرجع إليه (20) وبهذه الأصول التي قررها الأشاعرة لقراءة المتشابه في القران وخاصة فيما يتعلق بآيات الصفات استطاعوا أن يتدرجوا بمفكري هذه العقائد من مستوى النظرة الضيقة للنصوص العقدية ، والقراءة الحرفية لتلك النصوص التي تنتهي حتما إلى تكريس عقيدة التجسيم المرفوضة إسلاميا إلى مستوى عال من التفكير العقلاني الذي يحقق التنزيه في صورة تفصيلية متعالية .

نماذج من المتشابهات :

1- إشكالية الشبيه والتجسيم في النص القرآني :

قبل تناول هذه المسألة وما يأتي بعدها نذكر بأن المبدأ العام الذي اعتمده المتكلمون أشاعرة ومعتزلة في تأويل الآيات والأحاديث التي تثير إشكالا عقليا هو أن كلا من الفريقين يرى انّ المحكم هو الذي لا يحمل إلا معنى واحدا وانّ المتشابه هو الذي يحمل معاني كثيرة . و انه لهذا يجب رده على ذلك .

ورغم هذا المبدأ العام الذي يكاد يجمع عليه نراهم يفترقون في التطبيق إذ أنّ كلّ واحد من أصحاب المذاهب يدّعي أنّ الآيات الموافقة لمذهبه محكمة . وأن الآيات الأخرى الموافقة لقول خصمه متشابهة ، فلا بد من تأويلها حسب ذلك . فالمعتزلي يقول مثلا ، قوله تعالى " فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر " محكم وقوله " وما تشاءون إلا أن شاء الله ربّ العالمين " متشابه ، والسني يقلب الامر في ذلك . (21) .

(20) ابن تيمية : الفتاوي 41/182 .

(21)الرازي التفسير الكبير ج /141

إنّ إشكالية التشبيه والتجسيم سببها الرئيس ما جاء في القران من وصف الله تعالى بصفات " وإن كانت أقرب إلى التنزيه مما وصف به في مخاطبة الأجيال السابقة ، فمن صفات البشر ما يشاركها في الاسم أو الجنس كالقدرة والاختيار والسمع والبصر وعزا أمورا يوجد ما يشبهها في الإنسان كالاستواء على العرش والجهة واليدين وأمثال ذلك (22)

بحيث أن كثير من آيات الصفات إن أخذت على ظاهرها أصبحت مثارا للتشبيه مثل أن الله وجها ويدين وعينين وجهته هي السماء ومكان يجلس عليه وهو العرش ، وانّه يجيء يوم القيامة مع ملائكته وانه ينزل إلى سماء الدنيا كل ليلة في النصف الأخير من الليل ويقول " من يدعوني استجب له " إلى غير ذلك من الأوصاف والنعوت .

الاتجاهات الباحثة في هذه الايات :

لقد أثارت الآيات المتشابهات خاصة فيما يتعلق بالصفات الإلهية التي يشبه ظاهرها الله بالموجدات كثيرا من الاختلافات والاتجاهات بين الفرق الإسلامية الكلامية .

الاتجاه الأول : يمثله المشبّهة

والمجسمة ونسب هذا الاتجاه إلى بعض فرق المرحبّة وعلى رأسهم مقاتل بن سليمان وأصحابه الذين يقولون " بان الله جسم وان له جمّة على صورة إنسان : من لحم ودم وشعر وعظم وله جوارح وأعضاء ويد ورأس وعينين . مصمّت وهو مع هذا لا يشبه غيره ولا يشبهه غيره (23).

(22) محمد عبده : رسالة التوحيد . المجموعة الكاملة بيروت 1972ج 357/3.

(23) الأشعري : مقالات الاسلاميينا المكتبة العصرية بيروت 1990 ج 233/1.

وحمل ابن خلدون مذهبهم بأهم حاولوا إثبات " الجهة والاستواء ، والنزول والصوت ، والحرف وأمثال ذلك و آل قولهم إلى التجسيم : (24)

ويبرر ابن خلدون سبب وقوعهم في التشبيه أنهم حاولو أن يثبتوا الصفات الإلهية كما جاءت في القران الكريم حتى لا يكونوا من المعطلة .

أمّا ما أوقعهم في التشبيه هو رأيهم في الاستواء فقالوا " إنه استواء على العرش نثبت له بحسب مدلول اللفظ فرارا من تعطيله . ولا نقول بكيفية قرارا من القول بالتشبيه الذي تنفيه آيات السلوب ولا يعلمون ذلك أنهم ولجوا في باب التشبيه في قولهم بإثبات الاستواء " (25)

الاتجاه الثاني : يمثله أهل السنة من السلف ، والسلف هم أصحاب الحديث مثل احمد بن حنبل ، وداود بن علي الأصفهاني ، وجماعة من أئمة السلف جروا على منهج السلف المتقدمين عليهم من أصحاب الحديث مثل مالك بن انس والاوزاعي ، وسفيان بن عينية وربيعية بن أبي عبد الرحمان وكان يقال له ربيعية الرأي الذين قالوا في هذه الآيات " نؤمن بما ورد في الكتاب والسنة، ولا نتعرض للتأول بعد أن نعلم قطعا أنّ الله عزّ وجلّ يشبه شيئا من المخلوقات " (26) .

ويوجز ابن خلدون مذهبهم قائلا : فأما السلف من الصحابة والتابعين فاثبتوا صفات الإلهية والكمال وفوضوا إليه ما يوهم ساكتين عن مدلوله (27)

(24) ابن خلدون المقدمة دار الفكر لبنان 1998 ص 45.

(25) ابن خلدون المقدمة ص 445

(26) الشهرستاني : الملل النحل دار الكتب العلمية بيروت 1992.ج79/1

(27) ابن خلدون : المقدمة ص 445 .

ويضيف ابن خلدون على ذلك قوله : وهذا معنى قول الكثير منهم : اقرؤوها كما جاءت أي آمنوا من عند الله ولا تتعرضوا تأويلها ولا تفسيرها . لجواز أن يكون ابتلاء فيجب الوقوف والإذعان له : (28).

وهذا المعنى هو ما أكده البيهقي (ت : 458) بقوله : " إنّ إثبات الصفات الخبرية كالوجه واليد والعين عندما صرّح به السمع ، ساكتين عما ورائها ، قائلين إنّ هذه " صفات طريق إثباتها السمع ، فنثبتها لورود خبر الصّادق بها ولا نكيّفها : (29) .

الاتجاه الثالث : هو اتجاه أهل السنة من الخلف الذين ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري (ت 324هـ) الذي يعتبره ابن خلدون " إمام المتكلمين الذي توسط بين الطرق ونفى التشبيه ، واثبت الصفات المعنوية وقصر التنزيه على ما قصره عليه أهل السلف : (30) .

وفي هذا يقول : " قولنا الذي نقول به وديانتنا التي ندين بها التمسك بكتاب ربّنا عز وجل ، وسنّة نبيّنا (ص) و ما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون وبما كان يقول به أبو عبد الله احمد بن حنبل قائلون . ولمن خالف قوله مجانبون : (31)

---

(28) ابن خلدون نفس المرجع والصفة.

(29) البهيقي : الاعتقاد على مذهب السلف . تحقيق أبو الفضل الغماري ، دار العهد الجديد ، القاهرة 1959 ص 29.

(30) ابن خلدون : المقدمة ص 445.

(31) الأشعري : الايانة عن أصول مكتبة دار البيان دمشق 1401 هـ ج345/2

وإذا كانت طريقة الأشعري في آيات الصفات تتمثل في إثباتها كما هي دون تأويل يشهد على ذلك قوله لمّا سئل عن عقيدته التي يعتقدها ، وديانته التي يدين الله تعالى بها " وانّ لله استوي على العرش كما قال : ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام " (الرحمان أ 27) وان له يدين بلا وكيف كما قال " خلقت بيدي (ص أ 75) وان له عينا بلا كيف كما قال : تجري بأعيننا (القمر أ 14) (32) نقول : إن الله يجيء يوم القيامة كما قال : وجاء ربك والملك صفّا صفّا "

(الفجرأ 22)

وان الله عز وجل يقرب من عباده كيف شاء كما قال : ونحن اقرب اليه من حبل الوريد " (ق أ 16)

قلت إذا كان الأشعري قد وقف من آيات الصفات هذا الموقف الذي يوحي بالتفويض .

فانّ متأخري الأشاعرة مثل الغزالي والجويني والرازي والبغدادي فقد لجؤوا إلى تأويلها حتى لا يقعوا في التشبيه .

بعض آيات الصفات التي أولها الأشاعرة :

1- اية : الاستواء على العرش : صفة الإستواء من الصفات الخبرية الثابتة لله تعالى . وهي من أعظم الصفات التي تبين علو الله تعالى على خلقه واستواءه على عرشه . ولقد جاء إثبات صفة العلو لله في القران على وجوه متعددة ومن هذه الآيات قوله تعالى : " الرحمن على العرش استوي : (طه أ 5)

---

(32) الأشعري : الايانة نفس المرجع .ج345/1.

وإذا كان متقدو الأشاعرة قد ذهبوا في هذه المسالة إلى ما ذهب إليه السلف من إثبات علوّ الله على خلقه واستوائه على عرشه استواء يليق بجلاله وعظمته.

فإنّ متأخري الأشاعرة لم يأخذوا هذه الآية على ظاهرها نفيا للتشبيه والتجسيم فقالوا بانّ العلوّ الوارد في الآية مقصود به القهر والتدبير وارتفاع الدرجة . وقال الرازي بعد إن أورد الآيات التي تنص على إثبات علو الله " العلو في هذه المواضيع بمعنى العلو بالقدرة لا بمعنى العلو بالجهة " وهذا يبطل كونه تعالى مختصا بشيء من الجهات ، وهذا تأويل عنده مستقيم على قانون اللغة لقول الشاعر

قد إستوى بشر على العرق من غير سيف ودم مهراق

ومن الأشاعرة من ذهب إلى هذا التأويل الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور الذي انفرد عن بقية الأشاعرة بتأويلات خاصة في خصوص هذه الآية حيث يرى .

1- إن تأويل الاستواء بالقهر والغلبة والاستواء قول ضعيف حيث " لا مناسبة لان تستعمل غلبة العرش في معنى عظمة الله إذ ليس العرش يتوهم فيه خالقية حتى يعبّر بغلبته عن عظمة الغالب . وعلى هذا التأويل ، فالمراد بالعرش عرش الذي هو عالم السماوات .

2- إن التأويل الذي ذهب إليه الرازي وهو الاستواء بمعنى الاقتدار تأويل ضعيف " إذ لا كبير معنى للاقتدار هنا . والمراد بالعرش على هذا مثل المراد به على التأويل الأول .

3- إن التأويل الذي اختاره ابن عاشور هو أن قوله تعالى " الرحمن

على العرش استوي " مركّب دالّ على هيئة جلوس الملك على العرش . وتلك هيئة عظيمة في عقول السامعين .

فجاء في هذه الآية عظمة الله تعالى التي لا تصل العقول إلى كنه هيئتها بهيئة عظمة هؤلاء الملوك تشبيها مقصودا به التقرب . وهو تشبيه المعقول بالمحسوس "(33)

4 أية قوله تعالى " هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام " (البقرة أ 210) .

ووردت صفة النزول في الحديث المتواتر المشهور الذي رواه جمع كثير من الصحابة منهم أبو هريرة الذي قال : قال الرسول (ص) " ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعوني فاستجب له ومن يسألني فأعطيه ، ومن يستغفرني فاغفر له (34)

أمّا السلف فقد اجمعوا على إثبات هذه الصفة لله من غير تحريف ولا تمثيل ومن غير تكييف ولا تعطيل مثلما اشرنا سابقا والى هذا ذهب الأشعري

أما متاخرو الأشاعرة فقد أوّلوا هذه الآية حيث ذكروا أن المراد " هل ينظرون إلا أن تأتيهم آيات الله ، فجعل مجيء آيات المجيء له على التفخيم لشأن الآيات كما يقال : جاء الملك إذا جاء جيش عظيم من جهته أو يكون المراد : أهل ينظرون إلا أن يأتيهم أمر الله " (35) لان الله منزه عن المجيء والذهاب "

(33) ابن عاشور (محمد الطاهر) تحقيقات وأنظار في القران والسنة . الشركة التونسية للتوزيع .1985ص15.

(34) البخاري : في التهجد باب الصلاة والدعاء من آخر الليل (ج 29/3 فتح الباري رقم 1145)

(35) الرازي : أساس التقديس .ص 83

ولان كل ما يصح عليه المجيء والذهاب فانه لا ينفك عن المحدث فهو محدث والله يستحيل ان يكون كذلك (36)

ويقول ابن فورك في تأويل صفة نزول الله تعالى " أما أن يراد به إقباله على أهل الأرض بالرحمة والاستعطاف بالتذكير والتنبيه الذي يلقي في قلوب أهل الخير منهم . من أسعده بتوفيقه لطاعته " (37) .

3- تأويل قوله تعالى " الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة "

(351) وهذه الآية مؤيدة بما روي عن النبي " صلى الله عليه وسلم من انه كان يقول في دعائه " اللهم لك الحمد أنت نور السموات والعرش ومن فيهنّ

(رواه ابن خزيمة عن طاوس عن ابن عباس) .

ذكر الأشاعرة ومنهم الرازي بالخصوص انه لا يصح القول بان الله تعالى هو هذا النور المحسوس بالبصر ودليله

1- أنّ الله تعالى لم يقل انه نور بل قال انّه نور السموات والأرض ولو كان الله نورا في ذاته لم تكن لهذه الإضاءة أية فائدة .

---

(36) الرازي : نفس المرجع والصفحة

(37) ابن فورك : مشكل الحديث ص 79.

2- لو كان الله تعالى نور السموات الأرض أي انه الضوء المحسوس لترتب على ذلك أن لا يكون في شيء من السموات والأرض ظلمة البتّة لأن الله يتصف بالدوام ولا يسري عليه الزوال .

3- لما كانت الأجسام كلّها متماثلة ، ثم أن تساويها في الماهية تراها مختلفة من حيث النور والظلمة ويجب حينئذ أن يكون الضوء نفسه عرض قائم بالأجسام والعرض كما هو معلوم يمتنع أن يكون الها .

عندئذ ثبت بهذه الوجوه انه لا يمكن حمل النّور على ما ذكره البعض من أنّ الله هو نفسه هذا النور المحسوس بالبصر بل معناه . انه هادي أهل السموات والأرض ومنورهما على الوجه الأحس والتدبير الأكمل ، مثلما يقال : فلان نوّر هذه البلدة إذا كان سببا لصالحها (38)

وبهذه القراءة استطاع الأشاعرة التدرج بمفكري هذه العقائد من مستوى النظرة الضيقة للنصوص العقدية أو القراءة الحرفية لتلك النصوص التي تنتهي حتما إلى تكريس عقيدة التجسيم المرفوضة إسلاميا إلى مستوى عال من التفكير العقلاني الذي يحقق التنزيه في صورة تفصيلية متعالية

نستخلص من هذا البحث أن علماء المسلمين وقفوا من تأويل النصوص القرآنية موقفين أساسيين

1) موقف حكّم أصحابه النص ألقراني . على أساس انه لا مجال للعقل في الوصول إلى معرفة الله وصفاته الواردة في القران من غير نصّ موحي به سواء أكان قرانا أم سنة صحيحة متواترة ويأتي في مقدمة هؤلاء علماء السّلف

---

(38) الرازي : أساس التقديس ص80.

2) موقف حكّم أصحابه العقل باستدلالاته على تأويل النص ألقراني . وذلك بإرجاع آيات الصفات التي يوحي ظاهرها بالتشبيه إلى مرجع المعرفة العقلية . والى إيجاد توافق بين المطلق والنسبي (الوحي والعقل) (39)

هذا واشتهر في السنة العلماء : أن طريقة السّلف في هذه المسالة أسلم . وطريقة الخلف اعلم واحكم .ووجهه . أن طريقة السلف تشتمل على السلامة من تعيين معنى لا نستطيع أن نقول انه مراد الله

وطريقة الخلف تشتمل على مزيد الإيضاح والردّ على الخصوم والسلف والخلف متفقون على التأويل الجملي . لكنهم مختلفون فيما وراء ذلك . مختلفون في التعرّض لذكر المعنى المراد من النص فالسلف لا يتعرضون لبيانه ، والخلف يتعرضون لبيانه (40) .

(39) د. محمد الكتاني : جدلية العقل والنقل في مناهج التفكير الإسلامي دار الثقافة للنشر والتوزيع ، المغرب 1992 .ج1ص585

(40) محي الدين عبد الحميد : النظام الفريد : بتحقيق جوهرة التوحيد ص 129.